تمنطيط المدينة في مجتمع القصور
الدور العلمي والتجاري في القرن 9 هـ/ 15 م.

د. الحمدي أحمد[1]
جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

تمهيد:

تشكل القصور الصحراوية عناصر تاريخية وجغرافية متنوعة ومتميزة تبعا لتنوع البيئات والتركيبة السكانية فيها، مما يجعل من الضروري دراستها ومعالجتها مقسمة إلى وحدات. وما يهم الباحث في هذه الدراسة هو رصد تاريخ مدينة هامة في فترة أساسية، وفي مجال أدى العديد من الأدوار التاريخية. هذه المدينة هي تمنطيط عاصمة توات في الفترة الوسيطة، والدور الذي ستتم معالجته هو الدور العلمي والتجاري. فقد عرفت هذه المدينة هجرة جماعية لعائلات وشخصيات علمية أغلبها من مدن مغاربية، مثل: سليمان الإدريسي، أبي يحي المنياري، ويحي بن يدير،وعائلة العصنوني، والمغيلي، والفكيكي، وغيرهم. وكانت المدينة ـ في تلك الفترة ـ مسرحا للدراسات المنطقية، والمناظرات الفقهية، واللغوية، والكلامية. بالإضافة إلى كونها ظلت جسرا تجاريا على الدوام، وعرفت الكثير من الصناعات، والحرف، والسلع (الذهب، العبيد، التمور، التبغ). وقد حققت التجارة وحركة القوافل بها اللقاء التاريخي بين مختلف المدن المغاربية، والصحراوية، والسودانية. ولعل تحليل السلع التجارية الداخلة في نظام التبادل تؤدي إلى فهم حقيقة الروابط المادية بين الجانبين.

- الحياة الاقتصادية بتمنطيط

تتنوع النشاطات الاقتصادية بهده المدينة وتتمثل هذه النشاطان أساسا في التجارة، والزراعة، والرعي، والصناعة.

- التجارة

فقد احتلت مكانة أساسية في طريق القوافل التجارية المتجهة من بلاد المغرب إلى بلاد السودان الغربي، نظرا لموقعها المتوسط في الصحراء. وازدادت أهميتها منذ القرن الثامن الهجري (الثالث عشر الميلادي)، بعد تخلي القوافل القادمة من الشمال عن المرور بملاحة تغازي[2]. وتأتي أهميتها من خلال كون منطقة توات تتوفر على المصادر المائية والكلأ للدواب وكذا المؤن للرحالة.فالواحات تمتد على هيئة شريط تتوزع فيه القصور والبقع المزروعة، ومن هذه الطرق طريق: طرابلس[3]، غدامس[4]،

تيديكلت الشرقية، توات، السودان الغربي. وتكمن أهمية هذا الطريق، في كون منطقة غدامس منفتحة على تجارة البحر المتوسط عبر طرابلس وقابس[5]. حيث إن طرابلس هي أهم نهاية في هذا المسلك، بحيث كانت على اتصال دائم بغدامس، التي كثرت بها البضائع السودانية قبل توجهها إلى المدن الإيطالية. وهذه الطريق التي دخل منها مالفانطي[6] إلى توات وتمنطيط عام 851هـ - 1447م[7].

أما الطريق الثاني، فهو الذي يربط تمنطيط بمنطقة الزاب[8]، وهذا المسلك يقع في شرق العرق الغربي الكبير، وبين منطقة الزاب وتوات، وتتفرع عن هذه المسالك مسلكان، واحد يمر شرقا حتى يصل إلى تيديكلت الشرقية، والآخر يتجه غربا نحو تيكورارين عبر وادي مكيدن ليصل فيما بعد إلى تمنطيط. وتنتشر بهذا المسلك العديد من النقاط المائية أهمها: حاسي النكبة وحاسي الأحمر وحاسي إن مال وحاسي بوخنافسي وحاسي التاركي وحاسي الشويف وحاسي اللفاعي وحاسي فرسيكة وحاسي موسى، ومنه مباشرة إلى سبخة تيكورارين[9]. أما الآبار الواقعة في المسلك الثاني نحو تيديكلت الشرقية عبر وادي الميا فهي: حاسي البرانية وحاسي الحاج موسى وحاسي الشويلي وحاسي الشبابنة وحاسي سيد الجيلالي وتلماس فركلة وتلماس الأعصم وعين قطارة والمنكار ومنها إلى فقارة الزوا، وهي أولى الواحات بتيديكلت الشرقية[10].

ومن أهم المسالك أيضا المسلك الذي يربط شرق وادي المساورة بإقليم تيكورارين في شبه خط مستقيم، ومن تيكورارين يصل إلى تمنطيط. ومراحله من الجنوب إلى الشمال: حاسي الحمري ورأس الما وخلوة سيدي ابراهيم وحاسي النمورة. وهناك مسلك آخر بجانبه يعبر مسالك مائية هامة هي: تبلكوزة وحاسي المعازي وحاسي العز وحاسي الشيخ. بالإضافة إلى هذين المسلكين توجد معابر أخرى لكنها قليلة الاستعمال، بسبب كونها تخترق العرق الكبير، وهي مسالك محدودة الاستعمال على النطاق الإقليمي. بحيث تستعملها قبائل الرحل، التي تتعامل غالبا مع الواحات في موسم إنتاج التمور.

وأهم هذه المسالك على الإطلاق هو مسلك تمنطيط عبر فجيج، وتفيلالت، وتلمسان. وإذا كانت المسالك السابقة عبارة عن نقاط مائية متباعدة، فإن هذا الطريق تشكله أساسا الواحات المتصلة من زاوية الركاني، وحتى قصر إيكلي، عند ملتقى وادي زوزفانة بوادي كير، كما أن هذا المسلك يجنب القوافل التجارية المرور بالعرق الغربي وحمادة كير وعرق الشاش في غربه والعرق الغربي الكبير في جنوبه.[11]

ولعل هذا ما يفسر نشاط القوافل الكبير في هذا المسلك. إذ أن العرق الغربي الكبير يمثل حاجزا طبيعيا بين توات والمغرب الأوسط. كما أن القبائل الواقعة في هذا المسلك كقبائل أولا جرير[12]، وذوي منيع[13]، وآيت خباش[14]، كانت كلها تشكيلات

منظمة تخضع للسلطة. بمعنى أن القوافل التجارية كانت في مأمن من اللصوص وقطاع الطرق، الذين يتكاثر عددهم في المناطق غير المحمية. لأن القبائل تعتبر المسالك المارة في مجال نفوذها ملكا لها ومصدرا من مصادرها الاقتصادية، ولذلك مارست العديد من القبائل السائبة نفوذا قويا بالنسبة لبعض المسالك[15].

ومن العوامل التي يجب مراعاتها في التجارة التي تمر بتمنطيط، وغيرها من مناطق الصحراء هو عامل المناخ. هذا الأخير الذي يؤثر بكيفية مباشرة على توقيت الرحلات في كل سنة. وهكذا فإن بعض المسالك التي لا يمكن استعمالها طوال السنة، كالمسالك توجد بجانب العروق، فإنه يتعذر استعمالها في فصل الصيف. وكذلك في أغلب فصل الربيع لكثرة الرياح الموسمية بهذه المنطقة، فهي تشكل زوابع رملية قوية شديدة السرعة يستحيل على القوافل التجارية قطعها، وقد تؤدي في بعض الأحيان إلى ضياع السلع إذا كانت من أحجام خفيفة. وفي موسم الجفاف يقل الكلأ بالمسالك وبالتالي فإن الدواب تعاني كثيرا من تلك الوضعية. كل هذه المعطيات الطبيعية تعتبر شيئا هاما في تفضيل بعض المسالك على بعض، كما أن اختيار توقيت الرحلات من الأشياء التي لا تقل أهمية عن اختيار المسلك المناسب[16].

ويعتبر الجمل الوسيلة الوحيدة لحمل السلع والتنقل عبر الصحراء، وقد شاع استعماله بها ابتداء من القرن الثالث الميلادي، فساعد ذلك على إعادة الروابط بين الشمال والجنوب، حيث يتجمع التجار في أعداد كبيرة لأجل السفر مع بعض بهدف الحراسة، وتُصف الجمال صفوفا وراء بعضها البعض وكل صف فيه مائة بعير، وبهذه الطريقة تعبر القوافل الصحراء[17].

وكان تجار تمنطيط يتولون رئاسة قوافلهم بأنفسهم، وشملت سلع تلك القوافل إلى أسواق السودان الغربي الملابس المطرزة، والأسلحة، والتمور، والحناء، والشمة. وكما يبادلونها بالعبيد، وتراب الذهب، وريش النعام، والنحاس، والقطن، وغيره. ويأتون بسلعهم لعرضها للبيع بأسواق توات، وهناك من كان يواصل طريقه من تجار توات نحو أسواق الشمال كطرابلس، وغدامس، وبجاية، وتلمسان، وتافيلالت، وفاس، لمبادلة سلعته بالأسواق بالأسلحة والسيوف والفواكه المجففة لتباع في الأسواق المحلية لمنطقة توات[18]. وهناك من كان يأخذ سلعته ليبادلها في تغازي[19] بالملح، ثم يأخذ الملح ويتوجه بها إلى ممالك السودان الغربي ليبادلها بالذهب وريش النعام. أما القوافل التي كانت تأتي إلى توات من غدامس وطرابلس الغرب، فهي محملة بالفلفل والصمغ العربي والسكر والشاي. كما أن قوافل الزاب تحمل إلى توات أجود التمور وتبادلها بالحناء والصوف[20].

ويؤكد مالفانطي أنه شاهد أثناء تواجده بتوات عام 851هـ - 1447م قافلة آتية من سبتة وهي محملة بالنحاس. كما أن جزولة[21] وسوس[22] كانت تروجان نحاسهما في

الأسواق التواتية والسودانية على حد سواء. وتعد الفضة هي الأخرى من أهم السلع التي كانت تصدر من بلاد المغرب إلى الأسواق الجنوبية. ونظرا لكثرة تزايد الطلب على الذهب منذ القرن السابع الهجري(الثالث عشر الميلادي)، أدى إلى التوسع في استغلال مناجمهم في إمبراطورية مالي. ولما كثر الذهب بتمنطيط جعل تجار الإقليم يفكرون في سك عملة خاصة بهم فوضعوا المثقال الذهبي، وهو يقابل أربعة غرامات ونصف من التبر أي أربعة وعشرين قراطا[23]. كما كانت لهم وسائل أخرى لوزن البضائع التي تحتاج إلى وزن، وأصغر ميزان هو الزكن الذي يساوي لتران ونصف، وتليه القصعة والتي نساوي اثنا عشر زكنا. أما الغرارة فهي تبلغ خمسة وثلاثون زكنا أو ثلاث قصعات، وأكبر وزن هو الحمل الذي يساوي غرارتان ونصف علوية[24]. وهكذا فإن تجار توات ضبطوا المكاييل والموازين، وكذلك الشأن بالنسبة للسكة والتي كانت ذهبية، مما يدل على أن التجارة كانت تتم بطرق منظمة وتسير بشكل يسهل تعامل التجار مع بعضهم البعض، كما يسهل عملية مراقبة الغش والاحتيال.

وأصبحت تمنطيط منذ القرن الثامن الهجري(الرابع عشر الميلادي) لا تضاهيها أي مدينة بالصحراء إلا مدينة غدامس، فقد كان لتجارها وكلاء عنهم في كل المدن بممالك السودان الغربي، ففي تنبكتو كانت توجد أحياء خاصة يسكنها تجار توات، كما كانت لهم أحياء أخرى على نهر النيجر. وبذلك استطاعت أن تحتل مكانة كبيرة في تجارة القوافل، حيث أن تجارها أدوا دورا كبيرا في اقتصاديات الإمارات الغربية والوسطى للسودان الغربي. لذلك فإن أمير برنو[25] راسل علماء توات عام 851هـ - 1447م: «يشكو لهم فيها من قلة توارد قوافل تجار توات على بلده في تلك السنة والتي قبلها ويرجوهم العمل على حثّ تجار قصورهم كي يبعثوا بتجارتهم إلى بلاده»[26].

الصناعة:

في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) اشتهر أهل تمنطيط بصناعتهم المحلية اليدوية، وتميزوا بجودة المنتوج وسلامته من أي تزييف. وأهم هذه الصناعات صناعة الجلد، فقد صنعوا الأحذية والأفرشة الصغيرة والعمائم والسروج والسلات والعديد من الأمور المنزلية. كما برعوا في غزل ونسج الصوف والقطن، فصنعوا الأبسط والأغطية، والملابس والبرانس والإزارات. ومن أهم مشاكل هذه الصناعة قلة الموارد الأولية خاصة من الصوف والقطن، وسبب ذلك راجع إلى قلة أعداد رؤوس الماشية التي تربى بالمنطقة. زيادة على ذلك أن الحيوانات التي تربى بالمنطقة رديئة الصوف، كما أن سكان المدينة لم يعتنوا بزراعة القطن. وفي هذه

الأوضاع كان لزاما عليهم شراء هذه الموارد الأولية من القوافل التجارية القادمة من الشمال، والمتوجهة إلى بلاد السودان الغربي. فهذه القوافل كانت في أغلبها محملة بالقطن والحرير والصوف، ولذلك كان لها زبائن كثر بتوات[27].

واشتهرت النساء بتمنطيط بصناعة السلات بسعف النخيل، وكانت لهذه السلات أهمية كبيرة في حمل التمور وغيره من المنتوجات، وهذه السلات تتفاوت في الحجم والنوعية حسب الطلب عليها، واستعمل بعضها كوحدة للكيل كالعلوية[28]، لذلك كان يشترط في صنعها الدقة والحذر. فقد تترتب العديد من الأحكام الشرعية عند الخطأ في الصنع، ويصبح الوزن غير مضبوط إما بالزيادة أو بالنقصان. وتخصص بعض الرجال في صنع الأكياس التي تحمل البضائع والسلع إلى بلاد السودان، وكانت تصنع من جذوع النخيل. ويشترط في هذه الأكياس المتانة، لأنها تحمل فوق ظهور الجمال مسافات طويلة، كما أن حركة الجمل المتميزة تؤثر على الأكياس الرديئة الصنع، وتؤدي إلى إتلافها. وهناك من برع في صنع الغرائر، التي تحمل على ظهور الحمير، وهي خاصة بحمل الأسمدة للبساتين، وتعتبر أكثر صلابة من السلات السابقة. لذلك استعملت الغرارة كوحدة للكيل[29].

ولتلبية الاحتياجات المحلية من الخشب للبيوت والقصب وللسقف كذلك، اضطر سكان المدينة إلى الاستغناء عن بعض النخيل وقطعها. وعادة ما تقطع النخلة التي يكون طولها كبيرا، والتي كان الصعود إليها يعد مخاطرة. كما يشترط في النخلة التي يراد قطعها أن تكون عديمة الفائدة، كأن تكون غير منتجة أو من نوع الذكور، واستخدم السكان جذوع النخيل الفحم لطهي الشاي والتدفئة. واشتهرت تمنطيط بذلك حيث كثر بها النجارون وصنعوا من تلك الأخشاب الراحلة لبيعها للمسافرين، حيث توضع على ظهور الجمال المراد الركوب عليها. كما صنعوا من الخشب كذلك الأواني المنزلية وبعض حاجيات البساتين كعود المعول والفأس[30].

وكانت تمنطيط تعد أبرز قصر في الصناعة التواتية. فقد كثر بها النجارون، وتعدد بها الحدادون، الذين قاموا بصيانة الآلات اليدوية والزراعية كالمنجل والفأس. كما اشتهرت بمحلات العطر الكثيرة، بالإضافة إلى الجزارين والدلالين. أما صياغة الذهب فقد كان يمارسها اليهود في هذه الفترة، والذين كانوا يشترون تراب الذهب من القوافل التجارية القادمة من بلاد السودان الغربي، ثم يصنعون الحلي والقلائد للنساء. وبذلك فقد تمكنوا من جمع ثروات كبيرة وأصبحوا من كبار تجار الذهب بالصحراء والمنطقة[31].

الزراعة:

تعتبر تمنطيط في هذه الفترة، من أهم المناطق الصحراوية إنتاجا للعديد من المحاصيل الزراعية. ساعدها في ذلك كون أغلب مساحتها المزروعة بجانب مجاري

الأودية. علاوة على ذلك فهي تتوفر على مياه جوفية وفيرة، تقوم أساسا على نظام الفقاقير، والتي تحتاج إلى عمل جبار لزيادة منسوب المياه بها. وامتاز المزارع بها بالتنوع في زراعته ووفرة إنتاجه وجودته. فهو يمضي معظم أوقات اليوم في بستانه يحرث ويقلب الأرض. ويبدأ موسم الزراعة في النصف الثاني من شهر أكتوبر[32].

وأهم زراعة بالإقليم هي زراعة النخيل، فلا يخلو قصر من واحات النخيل الكثيرة، إذ أن التمور هي الغذاء الأساسي بالمنطقة. ولم يقتصر على كونه مادة غذائية هامة، بل يعتبر أهم السلع نحو مختلف الأقاليم والجهات. وتَمْرُ تمنطيط يتميز بالجودة والتنوع في الحجم والشكل والذوق وتفاوت أوقات النضوج. ومن هذه الأنواع: الفرانة، والحميرة، وتناصر، والمسعودية، وأحرطان، والدقلة، وتنقربوش، وتنقور، وآكاز، وبنخلوف، ووتزرزاي، وتلمسو، والعديد من الأنواع الأخرى. وعندما حل الرحالة إبن بطوطة ببودا وصف تمرها بأنه: «كثير ليس بطيب، لكن أهلها يفضلونه على تمر سجلماسة»[33]. وفي اعتقادي أن ابن بطوطة حل بتوات في الوقت الذي لا ينضج فيه النوع الجيد من تمر، حيث أن الأنواع الجيدة للتمور تنضج في بداية الموسم وكذلك في آخره. أما الأنواع التي تنضج في منتصف الموسم فتتميز بالصلابة وصغر الحجم، وهي الأنواع التي يتم تحضيرها في أكياس لتكون ضمن السلع التواتية المتوجهة نحو الأسواق السودانية. والسر في ذلك كون التمر الرطب لا يمكن المتاجرة به لتعذر وصوله بصفة جيدة إلى الأسواق الخارجية، وهو صالح للتجارة المحلية خاصة في بداية الموسم. وتتطلب النخيل عناية خاصة بالأسمدة وقطع الجريد وتنظيفها من كل ثقل زائد. وعادة ما تنتج النخلة محصولا جيدا في كل سنتين وهو أمر مرهون بمدى العناية التي يعطيها الفلاح لمجموع النخيل[34].

ومن المزروعات الأخرى التي يعتمد عليها المزارع الحبوب والحناء، والتي يكثر إنتاجه بتوات الوسطى التي تدعى توات الحناء. كما اشتهرت تمنطيط بإنتاج التبغ وكذلك الأنواع المختلفة من الخضروات. وكان القمح الصلب يباع في الأسواق الخارجية بثمن مرتفع نظرا لجودته العالية، ويشتري المزارع أنواعا أقل جودة وهكذا يستفيد من فارق السعر. ومن المنتوجات بالمدينة كذلك الجزر، واللفت، والفول، والعدس، والفول السوداني، إلى جانب الرمان، والتين، والعنب، والبطيخ. ولم يتمكن المزارعون بها من زراعة القطن لعدم الخبرة اللازمة في زراعته[35].

ومن أخطر المشاكل التي تواجه الفلاحين بها، هجوم أسراب الجراد بأعداد هائلة على المحاصيل الزراعية. فهو لا يبقي أي شيء أخضر على سطح الأرض، فيأكل حتى جريد النخيل، ومن الأقدار أن الموسم الذي يأتي فيه – عادة – الجراد إلى المدينة يكون عام الخير والإنتاج الوفير. لذلك ارتبط ظهور بعض أعداد من الجراد في بداية الحرث بأن الموسم موسم خير. لكن هجوم الجراد على المحاصيل أثناء

نضجها هو نذير شؤم عند الجميع، لذلك يستعد كل السكان لمقاومته، ويقول ابن بطوطة بهذا الشأن:«ويخرجون إلى صيده قبل طلوع الشمس، فإنه ما لا يطير إذاك لأجل البرد»[36]. وهو بعد الصيد من أشهى الأطباق، حيث يتم خزنه في أكياس كما يختزن التمر تماما ويقتاتون به. ويُدَقُّ مع التمر اليابس ويؤكل زمن نقص التمر الرطب[37].

ومن المشاكل التي تواجه المزارع كذلك ارتفاع درجة الحرارة في فصل الصيف إلى نسب قياسية. مما يؤدي إلى سرعة تبخر المياه المارة عبر السواقي، لذلك سارع المزارعون إلى تغطية السواقي بالصخور لمنع تبخر الماء. وتغطية السواقي كذلك تجنب سقوط جزيئات كثيرة من الرمل في الماء عند هبوب عواصف هوجاء، هاته العواصف التي تساعد على تلقيح العديد من أنواع الأشجار والنخيل التي تعذر تلقيحها. ومن مضار الزوابع الرملية إتلاف عدد كبير من المساحات الزراعية، وتجمع كتل كبيرة من الرمال بجانب البساتين شكلت خطرا حقيقيا أمام المزارعين. هذا ما حتم على الفلاحين إقامة سياج من جريد النخيل اليابس لمنع زحف الرمال تجاه المساحات المزروعة يدعى هذا السياج بأفراك[38].

ورغم هذه المشاكل فإن الزراعة بالمدينة أدت دورا هاما في تطوير المنطقة. إذ بفضلها فكر السكان الأصليون في الاستقرار النهائي بها. كما أن الفرد كان يعيش من خيرات أرضه دون الاضطرار إلى أي مناطق أخرى. بسبب تنوع الإنتاج الزراعي ووفرته. ولجوؤه إلى عملية التخزين لأنه لا يأمن عواقب الدهر، فرغم أن التمر الرطب ينضج فقط خلال فصل الصيف،فأن المدينة يأكلون التمر طوال فصول السنة.

الرعي:

وأهم نشاط مرتبط بالزراعة هو الرعي، فمدينة تمنطيط في القرن التاسع الهجري(الخامس عشر الميلادي) اشتهرت بمراعيها الكثيرة المحاذية للأودية. فقد كانت القبائل العربية تقوم برحلة الشتاء إلى توات لرعي أغنامها[39]. وأهم المراعي توجد على ضفاف وادي مسعود الذي يمتد على كامل خط القصور. وفي هذه الأماكن تنموا العديد من الحشائش كالرتم، والعزل، والحصن، والباقل، والمرخ، والقطف، والدردين، وهي أماكن جيدة لرعي الحيوانات. وكانت القبائل التي تأتي إلى هذا المجال لرعي تقيم بمواشيها مدة فصل الشتاء كله وفصل الربيع، وهي قبائل مسالمة لا تتعرض للسكان في شيء، بل أقامت معهم العديد من العلاقات. ويجب أن أشير أن بعض المراعي كانت تقع في نفوذ بعض القبائل. ولذلك فعلى الرعاة على طلب السماح لهم بالرعي في مراعي القبيلة التي تسيطر على المرعى مقابل عدد من رؤوس الماشية، كما أن موسم رحلة الشتاء هو مناسبة هامة لقبائل منطقة توات

لعرض سلعهم المحلية على القبائل العربية، وبذلك يتم استبدال تلك البضائع ببعض رؤوس الأغنام[40].

واهتم أهل تمنطيط بتربية الإبل، فهي الوسيلة الوحيدة للسفر وأخذ الأمتعة، ولها طاقة كبيرة على تحمل مصاعب الصحراء، كالعطش، والأكل، فيمكنه البقاء مدة طويلة دونهما. واشتهرت المهاري بسرعتها الفائقة وخفة حركتها. ونظرا لتعدد الإبل بالصحراء وقيام منازعات بين قبائل المنطقة حول معرفة جمال كل قبيلة، قامت جميع القبائل بالاتفاق على وضع رموز خاصة على جمالها. وبذلك تسلم الإبل من الاختلاط. لأن الجمل أثناء الرعي لا يشترط أن يكون معه الراعي، فمهمة الراعي تنتهي عندما يوصل الجمال إلى أول مرعى، ثم يعود إلى القصر وتبقى الإبل في المرعى لعدة شهور بمفردها. لذلك كان لزاما وضع تلك الرموز الخاصة بالقبائل حتى لا تقع خصومات بينها. وعادة فإن الجمال لا تعود إلى القصور إلا إذا شعرت بعطش شديد[41].

الحياة الثقافية بتمنطيط:

كانت هذه المدينة تتمتع بحياة ثقافية مزدهرة، خلال القرن 9هـ/ 15م. فكانت تضيء كامل الصحراء بنور من المعرفة، أدى دورا كبيرا في تطوير الحضارة الإسلامية بهذه المناطق المتاخمة لبلاد السودان الغربي. فقد كان المغرب الأوسط في هذه الفترة مركز إشعاع فكري وعلمي[42]، وتأثرت تمنطيط ـ على غرار أغلب مناطق الصحراء ـ بمدينة تلمسان التي نبغ فيها عدد من الفقهاء[43]والمحدثين والمفسرين والكتاب والشعراء، وكان للدراسات الكلامية والفقهية[44]النصيب الأوفر والعناية الكبرى من طرف العلماء والطلاب على حد سواء، أما التصوف فهو الميزة العامة التي طغت على روح العصر[45].

القضاة بتمنطيط:

وتولى القضاء بها مجموعة من العلماء عُرفوا بالتقوى والصلاح والاستقامة. كان أولهم الشيخ أبي يحي المنياري[46] الذي استقر بتوات سنة 815هـ - 1412م. وباشر دوره الإصلاحي والتعليمي حيث عمل على نشر العلم في ربوع كامل الصحراء. وعرف عنه الورع والعلم والخوف من الله، وكان بارعا في علم اللغة العربية والبيان فصيح اللسان شديد الشكيمة في الحق، لا يخشى في الله لومة لائم فاشتهر بعدله وإنصافه بين الخصوم. وانتفعت به هذه المدينة وغيرها، فكان ملاذا للمظلومين رادعا لكل ظلم. وظهرت بركته في ذريته فلم تزل فيهم السيمة والرئاسة حيث:«لم يفارقهم العلم خلفا عن سلف وفيهم عدة رجال صالحين أهل خير وبركة، وكانوا

رحمة للبلاد وملاذا لمن أراد، انتفعت بهم الأوطان واستراحت فيهم الضعفاء والأعيان»[47].

وتولى قضاء تمنطيط من بعده الشيخ أبي زكرياء يحي بن يدير التدلسي، وكان دخوله إلى توات عام 845هـ - 1441م[48]. ووجدها بلاد خير وبركة ملائمة لممارسة النشاط التعليمي. وبدأ بتدريس الصبيان مبادئ اللغة العربية،والقرآن الكريم، وعكف على شرح مختصر خليل وفروع ابن الحاجب[49]، والمدونة في فقه مذهب الإمام مالك.كما انتصب لتدريس العقيدة والتوحيد وجمل الخونجي في علم المنطق، وعلم العروض والبيان وعلم الحديث، لكن شهرته – رحمه الله – كانت في علم الفقه الذي كان لا يشق له فيه جانب، وتخرج على يده العديد من الشيوخ بتوات. اشتهر بتسامحه وحلمه وطيبة قلبه وكان شديد الدهاء عارفا بأمور القضاء لا يحكم عن جهل ولا يتسرع في إصدار أحكامه. توفي رحمه الله عام 877هـ - 1472م[50].

وبعد وفاة الشيخ يحي بن يدير، تولى خطة القضاء من بعده أحد تلاميذه البارزين وهو الشيخ عبد الله بن أبي بكر العصنوني. هذا الأخير الذي كان دخوله إلى توات عام 862هـ - 1457م[51]. وكان العصنوني فقيها متمكنا ومارس التدريس مدة طويلة حيث درس اللغة العربية، والحديث، والفقه، والبيان، وهو مفتي تمنطيط وتوات في زمانه. واشتهر بتغليب جانب المصلحة في فتواه، فكان يراعي الظروف المحيطة بالنازلة قبل الإجابة عنها، ثم يفتي من غير إفساد للدين. وعرف بقوة ذاكرته وسرعة استحضاره الجواب. فكان – رحمه الله – يحفظ الأدلة الفقهية، وهذا ليس بغريب وهو من لازم الشيخ يحي بن يدير مدة طويلة[52].حيث كان يراقب يحي بن يدير أثناء قضائه بين الناس، وبذلك استفاد منه كثيرا. وأعظم محنة تعرض لها هي نازلة يهود توات. وتوفي رحمه الله سنة 927هـ - 1521م[53].

الزوايا ودورها بتمنطيط:

تعتبر الزوايا في هذه الفترة التي أدرسها أبرز المراكز التي عملت على نشر الوعي الفكري والحضاري بالمجتمع في الصحراء الكبرى، فقد عملت على بث الروح العلمية في نفوس السكان، كما قامت بدور اجتماعي كبير تمثل أساسا في إيواء العديد من المسافرين والمعوزين، الذين لم يجدوا أماكن للإقامة أثناء تواجدهم هناك. وحتى القرن التاسع الهجري(الخامس عشر الميلادي)كانت بتمنطيط زاوية واحدة هي زاوية المنياري.

زاوية أبي يحي المنياري:

ويعتبر قصر تمنطيط مركزها الأصلي، أين استقر مؤسسها في بداية القرن التاسع الهجري(الخامس عشر الميلادي). وقامت هذه الزاوية[54] بدور فعال في نشر الإسلام

والإصلاح بين القبائل السودانية في الجنوب. وعملت على استغلال حرفة التجارة لنشر تعاليمها وأفكارها بين سكان توات وغيرهم. وتدعوا هذه الزاوية إلى التسامح والرأفة بين مختلف شرائح المجتمع التواتي، وحتى مع أهل الذمة وقد عملت على الدفاع عنهم بقوة. ويعتبر مقدم الزاوية في وقته عبد الله بن أبي بكر العصنوني أكبر من يمثلون هذا الاتجاه. وتخرج العديد من التلاميذ من هذه الزاوية ونشروا فكرها في كامل تراب توات وخارجها. وفي عهد هذا الشيخ أصبح لهذه الزاوية نفوذا كبيرا على الجهات الغربية من إقليم توات. وتمكنت بذلك من السيطرة على أهم المدن التواتية.إلا أنها مالت إلى العزلة عن ساحة الأحداث زمن الشيخ سالم بن محمد بن أبي بكر العصنوني، خاصة بعد عودته من الحج. وكانت للزاوية خزانة كبيرة من الكتب المتنوعة جمعها مختلف التلاميذ والشيوخ، كما أن أوقاف الزاوية كانت عديدة، واستفادت هذه الزاوية من رضا السلطان الوطاسي محمد الشيخ، كما كان لها سند حربي يتمثل في قبيلة أولاد علي بن موسى، التي دافعت عن الزاوية وعن أفكارها ونفوذها بكل ما تملك من قوة[55].

ويعد المغيلي من أكبر رواد هذه الزاوية[56]، قبل وقوع الخلاف بينه وبين شيخها عبد الله العصنوني، حيث أخذ بها عن الشيخ يحي بن يدير بن عتيق. وسيسافر إلى قصر بوعلي ـ فيما لعد ـ ويؤسس زاويته عام 885هـ - 1480م، وبدأ النشاط التعليمي بها. وسرعان ما جمعت زاويته بين المهمة التعليمية والمهمة الحربية. حيث كانت قاعدة لانطلاق جيشه لضرب قواعد اليهود بتازولت، وتاخفيفت، وتاسفاوت، وتمنطيط، وغرمعلي، وغيرها من الأماكن التي يتواجدون بها. ويمكن قراءة أفكار ومبادئ هذه الزاوية عند تناول مؤلفات مؤسسها، الذي ترك العديد منها في مختلف العلوم[57].

حركة النسخ وبيع الكتب:

انتشر النسخ في مختلف الكتاتيب بتمنطيط، فقد كان يكلف الشيخ عددا من الطلبة بنسخ أمهات الكتب في الفقه والحديث واللغة والتراجم[58]. وهذا ما تدل عليه النسخ العديدة من المخطوطات التي ترجع إلى تلك الفترة في الخزائن التواتية. وكان من عادة الناسخ أن يسجل تاريخ بداية نسخه للكتاب وتاريخ الفراغ من النسخ، والمكان الذي نسخ به ولمن نسخ الكتاب. كما تجد أن البعض قام بكراء بعض الناسخين المشهورين بجودة الخط، والسرعة في الكتابة، لنسخ كتب معينة. فقد كان يحدث أن يأتي تاجر من تلمسان بكتاب إلى تمنطيط وهو لا يريد بيعه فيعيره مدة إقامته بها، ويقوم بنسخه من أراد ثم يرجعه إليه. كما أن بيع الكتب كان من أربح التجارات. وقد قام التجار بدور فعال في نقل الكتب بين مختلف الأقاليم، حيث عملوا على نشر العلم، والإسلام، في جهات متعددة من الصحراء الكبرى. ويجب أن أشير

إلى أن أغلب الكتب التي ترجع لهذه الفترة، تتعلق بالعلوم الشرعية وبدرجة أخص بالفقه الإسلامي. وهي تدل دلالة واضحة على تمسك سكان تمنطيط، وتوات، بالمذهب المالكي[59].

الحركة الفكرية:

لقد ظهرت الحركة الفكرية وتطورت حسبما يتبين للباحث من مختلف الوثائق في ميدانين، هما الآداب والعلوم الشرعية، ووفق هذا التصنيف يمكن تتبع تطورها فيما يلي:

الآداب:

لم يكن لسكان تمنطيط قبل مجيء الإسلام من الآداب سوى حكايات يتناقلونها بالمشافهة، أصاغر عن أكابر، وهي تروي بطولات الأجداد وأصول القبائل وحروب الملوك والأمراء، وكذا الصراع مع الطبيعة، فهي آداب أسطورية غير مكتوبة ولكن لها أثرها في حياة الناس، وبالتالي فإنها تجسم فكرة عامة لكل جماعة من حيث طابعها المميز، ومعتقداتها في الحياة وأهدافها في العمل[60].

أما النسبة الكبيرة من سكان توات، فقد بقيت على الأسلوب القديم في تطارح الآداب عن طريق الحكايات الشعبية والتغني بأمجاد الأسلاف، وأبطال المجتمع في صراعهم مع مظاهر الطبيعة المتنوعة. وبما أن هذا النوع من الآداب لم يكن قد سُجل، فإنه من غير الممكن معالجة موضوعه وقواعده في هذه الدراسة.

العلوم الشرعية:

تحدثت عن العلماء والفقهاء الذين تولوا مناصب قضائية في بتمنطيط، وقد كان كل واحد منهم متمكن من العلوم حيث بذل جهده في تحصيلها وإشاعتها. والبحث في هذه الفترة لم يمكن من معرفة سوى أربعة أسماء تخصصت في العلوم الشرعية، واطلعت على الآداب العربية وهم: المنياري، ويحي بن يدير، والمغيلي، والعصنوني. وقد سبق الحديث عنهم.

الكتاتيب:

كانت زاوية المنياري والتي مقرها تمنطيط، تعتبر مركزا للعديد من الكتاتيب التي تنتشر في مختلف أحياء الأحياء التي تتكوّن هذه المدينة. فقد كان لزاما على كل شخص بها إدماج ابنه في إحدى كتاتيب الزاوية، هذه الكتاتيب يشرف عليها عادة أحد خريجي الزاوية الأصلية. وكان نظام التدريس بها يعتمد أساسا على حفظ القرآن الكريم، ثم الانتقال إلى النحو والصرف بالإضافة إلى الفرائض والتفسير والحديث والفقه. وعندما يبلغ المتعلم درجة عالية من التكوين يتم نقله إلى الزاوية الأم، ومنها

يأخذ عن شيخ الزاوية ويلزمه وبعد ذلك يمنحه الإجازة العلمية، التي تسمح له بممارسة التدريس في إحدى كتاتيب القصور، التي تتبع هذه الزاوية. وكان شيخ الكُتَّاب يقوم بتدريس الذكور أما زوجته ـ عادة ـ فتقوم بتدريس الإناث، وقد كان هذا النظام معمولا به في سائر المقاطعات التواتية. وإذا لم تكن زوجة شيخ الكتاب متفقهة في الدين، يستنجد بإحدى فتيات الكتاب المتفوقات.
وقد كان يتم فصل الذكور عن الإناث، وأقيمت دروس ليلية للشيوخ في بهو المساجد. وكانت المناقشة بين الشيخ وطلابه جاريا بها العمل. أما التواضع ولين الجانب للطلبة، فقد كان من شيم الشيوخ في القرن التاسع الهجري(الخامس عشر الميلادي). كما أن صبر الشيخ على تفهيم طلبته يعتبره الناس من صفات الشيخ الناجح في مهنته. وكانت الطريقة الشائعة في الدرس أن يبدأ الشيخ بإملاء رأيه في المسائل على طلبته، وبعدها يقرأ الطلاب درسهم من الكتاب المقرر بحضور الشيخ، ثم يطلب منهم توضيح ما أشكل عليهم، وأثناء ذلك يقيد الطلبة التفاسير التي يعطيها الشيخ كجواب على استفساراتهم. وكان الشيخ أثناء الشرح يختار العبارات البسيطة لكي يتمكن الطلاب من الاستيعاب. أما الطلاب الذين يتخلفون عن الحضور لحلقات الدرس، فقد كان يتم معاقبتهم بالضرب الذي يكون رادعا لغيرهم. وكانت أجرة الشيخ تعطى له من أوقاف الزاوية بعد الحصاد وجني الثمار، كما أن أولياء الطلاب كانوا يساهمون بقسط وافر في تلك الأجرة[61].

مكانة العلم والعلماء:

فقد كان للعلم بتمنطيط أهمية بالغة خاصة في النصف الثاني من ق09هـ / 15م بعد توافد علماء أجلاء أسهموا بدرجة كبيرة في ازدهار الحركة الفكرية بها. فقد أقبل على العلم الصغار والكبار والرجال والنساء. كما حظي العلماء بمكانة كبيرة في المجتمع كونهم ورثة الأنبياء، فقد كانت كل المسائل والأمور ترجع إليهم وبخاصة في مرحلة حكم الجماعة. حيث كان الشيخ عبد الله العصنوني هو الذي يتولى شؤون الفتوى[62] والمظالم، بين مختلف شرائح المجتمع. ومما يبين قيمة العلماء بها، هو تمكن الشيخ المغيلي في ظرف وجيز من دخوله إليها من تأسيس إمارة، وهذا يدل دلالة واضحة بأن السكان وثقوا به، واقتدوا بأعماله كونه عالما جليلا. واستطاع أن يقوم بالعديد من التغييرات في نمط معيشة السكان خاصة العادات السلبية، التي دخلت إلى هذه المدينة عن طريق التأثيرات السودانية كالسحر، والشعوذة، وتقديس الأولياء. ولكن الانقسام الذي أنتجته نازلة اليهود أدى إلى تدهور مكانة العلماء بها فقد أصبح الفرد يتساءل: كيف يختلف علماء المذهب الواحد، في المسألة الواحدة، في المكان

الواحد، وطبعا فإن مثل هذه الانقسامات تحدث شرخا كبيرا في مجتمع بدوي لم يتعود مثل هذه المناظرات الفقهية.

الهوامش:

[1]- أستاذ محاضر بقسم الحضارة الإسلامية جامعة وهران.

[2]- أعفيف محمد، «المسالك الصحراوية توات حلقة اتصال بين المغرب وإفريقيا الغربية»،ندوة العلاقات بين المغرب وإفريقيا الغربية، منشورات عكاظ الرباط، ط 1992م، ص: 51.

[3]- طرابلس: بناها الأفارقة إثر خراب طرابلس القديمة، تحيط بها أسوار عالية جميلة، لكنها غير متينة كما يجب، وتقع في سهل رملي مغروس بنخل كثير، دورها جميلة، وليس بها سقايات ولا آبار، وإنما فيها خزانات وتعاني كثيرا من قلة الحبوب. ينظر:الوزان (الحسن)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي بيروت والشركة المغربية للناشرين المتحدين الرباط، ط الثانية 1983، ج2، ص: 97.

[4]- غدامس: منطقة كبيرة مسكونة على بعد حوالي ثلاثمائة ميل من البحر المتوسط، سكانها أغنياء لهم بساتين نخل وأموال، لأنهم يتاجرون مع بلاد السودان.ينظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص: 146.

[5]- قابس: مدينة كبيرة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط، داخل الخليج تحيط بها أسوار عالية قديمة وسكنها سود البشرة. ينظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص: 91.

[6]- أنطونيو مالفانطي: هو عميل لأسرة كونتر يونتي من مدينة جنوه والتي كان أفرادها من كبار التجار في إيطاليا، كما كانت لهم عدة مصالح تجارية في أسبانيا، وفي عام 851هـ - 1447م أحدثوا إصلاحات نقدية في مدينة جنوة، وإنجاح ذلك المشروع أرسلوا في السنة نفسها مالفانطي إلى توات لمحاولة الحصول على كميات من الذهب، وفي الوقت نفسه ليتجسس على الطرق الصحراوية وعلى منابع المعدن الأصفر، النفيس. ينظر: عبد العزيز العلوي، «العلاقات التجارية والثقافية بين المغرب المريني وإمبراطورية مالي»، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، عدد 5، السنة 1989، ص: 68

[7]- عبد العزيز العلوي، المرجع السابق، ص: 59.

[8]- الزاب: إقليم يقع في وسط مفازات نوميديا حيث يبتدئ غربا من تخوم المسيلة، ويحده شمالا جبل مملكة بجاية أما امتداده الشرقي فإلى بلاد الجريد التي توافق مملكة تونس، ومن جنوبه القفار التي تقطعها الطريق المؤدية من تقرت إلى ورجلان، وهذه المنطقة شديدة الحرارة رملية لا يوجد بها إلا يسير من الماء وقليل من الأراضي الصالحة لزراعة الحبوب، لكن عدد حدائق النخل بها لا يحصى، يشمل الإقليم خمس مدن وعددا من المدن الكثيرة. ينظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص: 138.

[9]- سبخة تيكورارين: من أكبر السباخ التي تقع شمال المنطقة التواتية، وتتكون من ثلاث منخفضات هي الظهراني والشرقي والقبلي. ينظر: بن عبد الله (عبد العزيز)، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية معلمة الصحراء، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الرباط، ط 1976، ملحق 2، ص: 263.

[10]- محمد أعفيف، المسالك الصحراوية توات حلقة اتصال بين المغرب وإفريقيا الغربية، ص: 57.

[11]- عبد العزيز العلاوي، العلاقات التجارية والثقافية بين المغرب المريني وإمبراطورية مالي، ص: 58.

[12]- أولاد جرير: من عرب المعقل بعضهم في الصحراء وبعضهم الآخر في سوس وهم منتشرون في وادي نون وأفران وراس الوادي وتيزنت. ينظر: عبد العزيز بن عبد الله، الموسوعة المغربية، ملحق2، ص: 66.

[13]- ذوي منيع: من فصائلها أولاد عبد الواحد وديبات وخونسن وبكار. ينظر: عبد العزيز بن عبد الله، الموسوعة المغربية، ملحق2، ص: 358.

[14]- آيت خباش: يسكنون المغرب الجنوبي الشرقي. ينظر عبد العزيز بن عبد الله، الموسوعة المغربية، ملحق 2، ص: 40.

[15]- محمد أعفيف، المقال السابق، ص ص: 58 – 59.

[16]- المقال نفسه، ص: 54.

[17]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط الثانية 1990م، ج2، ص: 259.

[18]-فرج (محمود)، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية والمؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط 1977، ص ص: 70 – 71.

[19]- تغازى: هي ملاحة مشهورة تقع على بعد ثمانين ميلا غرب تاودني وتمتد على حاولي ميلين من الغرب إلى الشرق وميل واحد من الشمال إلى الجنوب. أما الغرب فيوجد على عمق أربعة أمتار تقريبا. وكانت ظروف عيش العمال في هذه الملاحة قاسية جدا. فزيادة على شدة ملوحة مائها وشدة الحرارة بداخلها كان العمال يسكنون في أكواخ مبنية من حجارة وسقفها من جلود الجمال، وقد يموت أحيانا بعضهم جوعا في أكواخهم بسبب فقد القوت عند عدم مجيء القافلة. بالإضافة إلى الريح الشرقية التي تهب في الصيف. فتصاب أعينهم ويفقد الكثير منهم بصره. ينظر: عبد العزيز العلوي، المقال السابق، ص ص: 68 – 71.

[20]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 71.

[21]- جزولة: بلاد عامرة بالسكان، تتاخم غربا جبل سوس وشمالا الأطلس حيث تقع في سفحه تقريبا، سكانها خشنون لهم مثالية كثيرة وكمية كبيرة من الشعير. ينظر: الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص: 144.

[22]- سوس: تقع وراء الأطلس وتبدأ غربا من المحيط وتنتهي في رمال الصحراء، وشمالا في الأطلس وشرقا عند نهر سوس الذي سميت به، بها العديد من المناطق الهامة. ينظر: الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص: 113.

[23]- عبد العزيز بن عبد الله، الموسوعة المغربية، ملحق 1،ص: 113.

[24] -A. G. P. Martin , Quatre siècles d'histoire Marocaine , imprimerie Elmaarif aljadida. Rabat (1994).P. 15.

[25]- برنو: كانت بها مملكة الكانم، ويعتبر القرنان السادس والسابع الهجريين(الثالث والرابع عشر الميلاديين) أزهى عصورها، وكانت لها علاقة وثيقة بطرابلس ومصر، كما وطدت علاقات ببلاد المغرب عبر توات.ينظر: زبايدية (عبد القادر)، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء دراسات ونصوص، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط 1989، ص: 12.

[26]- عبد القادر زبايدية، (الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي جهوده وشهرته خارج الجزائر)، أعمال مهرجان أدرار، 1985م، ص: 80.

[27]- عبد العزيز العلوي، العلاقات التجارية بين المغرب المريني وإمبراطورية مالي، ص: 60.

[28] -A.G.P,MARTIN, quatre siècles, P. 15.

[29] - A.G.P, MARTIN, ibid, P. 15.

[30]-التمنطيطي (محمد بن عبدالكريم)، تقييد حول تاريخ تمنطيط وتوات، يوجد بالخزانة البكرية بتمنطيط، دون رقم، و3 و.

[31]- محمد الطيب بن عبد الرحيم، القول البسيط في أخبار تمنطيط، تحقيق فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية والمؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط 1977، ص: 18.

[32]-A. Selka, notice sur le Touat, bulletin de la Société géographique d'Alger et de l'Afrique du Nord, 3e trimestre (1922).P. 550.

[33]-ابن بطوطة (محمد)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة بيروت، ط الرابعة 1985، ج2، ص. ص: 801 – 802.

[34] - A.SELKA. op. cit. P. 550.

[35]- فرج محمود فرج، إقليم توات، ص: 58.

[36]- ابن بطوطة، تحفة النظار، ج2، ص: 801.

[37]- المصدر نفسه، ج 2، ص: 801.

[38]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص ص: 54 – 55.

[39]-ابن خلدون (عبد الرحمان)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى 1992، ج6، ص: 72.

[40]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 58.

[41]- ابن يدير يحي وغيره من علماء توات وتلمسان، النوازل التواتية، مخطوط يوجد بالخزانة البكرية بتمنطيط، دون رقم،و 33 و.

[42]- عبد الحميد حاجيات، (الحركة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان)، مجلة الأصالة، مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية الجزائر، جويلية – أوت 1975م، عدد 26، ص: 155.

[43]- من أشهر الفقهاء في هذا العصر بن زاغو المتوفى عام 849هـ - 1445م، ومفتي بجاية المشدالي المتوفى عام 866هـ - 1461م، والعقباني المتوفى عام 871هـ - 1466م، وأحمد بن زكريا المغراوي المتوفى عام 899هـ - 1493م، والحافظ ابن مرزوق العجيسي المتوفى عام 901هـ - 1495م. ينظر: التنبكتي (أحمد

بابا)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، وضعت هوامشه بإشراف عبد الحميد الهرامة، منشورات كلية الدعوة طرابلس ليبيا، ط الأولى 1986، ص ص: 527 – 574.

[44]- أول من أدخل كتاب خليل إلى المغرب محمد بن فاتوح التلمساني، وكانت ولادته عام 739هـ - 1338م، وتوفي عام 818هـ - 1415م. ينظر: حجي (محمد)، ألف سنة من الوفيات، تحقيق لشرف الطالب لأبن قنفذ ووفيات الونشريسي ولقط الفرائد لابن القاضي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر الرباط، ط 1976، ص: 239.

[45]- من أشهر المتصوفة: محمد الهواري المتوفى عام 843هـ - 1439م، وكذلك إبراهيم التازي نزيل وهران المتوفى عام 866هـ - 1461، عبد الرحمن الثعالبي المتوفى عام 875هـ - 1470م، وأشهر المتكلمين والمتصوفة: محمد بن يوسف السنوسي المتوفى عام 895هـ - 1489م. ينظر: أحمد بابا، نيل الابتهاج،2، ص: 572.

[46]- أبي يحي المنياري، نسبه لبني منيار قبيلة من العرب وهي معروفة في تلول المغرب الأوسط تخبر عنها حميان، وكانوا أهل قوة وبأس شديد، سكنوا تمنطيط من أرض توات لا توجد أي ترجمة لهذا الشيخ في المصادر المتوفرة لحد الآن كما لا يعرف تاريخ مولده ووفاته. ينظر محمد الطيب بن عبد الرحيم، القول البسيط في أخبار تمنطيط، ص: 30.

[47]- محمد الطيب بن عبد الرحيم، القول البسيط، ص: 30.

[48]- محمد الطيب بنن عبد الرحيم، القول البسيط، ص: 31.

[49]- ابن الحاجب: عثمان بن عمر الفقيه المحصل المدرك صاحب المختصرين العجيبين، توفي عام 647هـ – 1249م. ينظر: أحمد ابن قنفذ، شرف الطالب في أسنى المطالب، ضمن ألف سنة من الوفيات، ص: 71.

[50]- أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص: 637.

[51]- محمد الطيب بن عبد الرحيم، المصدر السابق، ص: 31.

[52]- ورثت عائلة العصنوني خطة القضاء بتوات، فبعد وفاة عبد الله العصنوني تولى القضاء ابن أخيه سالم بن محمد بن أبي بكر العصنوني، وقد درس على يد عمه عبد الله وغيره من علماء توات وسوس وتلمسان، وبعدم اشتد عوده اشتغل بالتدريس بتمنطيط، ثم تولى القضاء فحمدت الناس سيرته ووصل نفوذه العلمي والإصلاحي إلى بلاد السودان الغربي فأسلم على يديه خلق كثير من الوثنيين، توفي عام 968هـ – 1560م. ينظر: حجي (محمد)، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، مطبعة فضالة الرباط، ط 1978، ج2، ص: 631.

[53]- محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج 2، ص ص: 631 – 632.

[54]- تجب الإشارة إلى أن أول زاوية أسست بتوات هي زاوية مولاي سليمان الإدريسي وكان مقر هذه الزاوية بأولاد أنقال إحدى قصور تيمي، ويعتبر مؤسس الزاوية أحد العلماء العاملين، الذين فضلوا المقام في الصحراء رغم رغد العيش الذي كان يتمتع به في مدينة فاس، فهاجر إلى توات سنة 605هـ 1208م، وأسس زاويته وبدأ يعلم القرآن واللغة العربية والعقيدة والتوحيد فالتف السكان به ووثقوا به.وعمل على نشر فكره الصوفي من خلال الأوراد التي لقنها لأتباع زاويته، الذين انتشروا بكامل الصحراء الكبرى وبلاد السودان الغربي، وكان مريدي هذه الزاوية كثيري الإنفاق حيث أعطوا العديد من الهبات والصدقات من أجل استمرار دور الزاوية التعليمي والاجتماعي. وكانت هذه الزاوية تشتمل على مكتبة كبيرة من الكتب في مختلف العلوم، كالحديث والفقه والعربية والحساب والجغرافيا والفلك والطب والمنطق وغيرها من العلوم. وازدادت شهرة الزاوية بعد وفاة شيخها، حيث أقام له المريدون ضريحا على قبره وأصبح يزار ويقام له الوسم. وازدادت أوقاف هذه الزاوية من خلال الهبات التي كان يقدمها التجار المارين بتوات، والذين كانوا يقيمون أياما بها. كما اعتمدت على صدقات الحجاج، حيث كانت زاوية مولاي سليمان مرحلة هامة في طريقهم إلى بيت الله الحرام. وتجدر الإشارة هنا أن هذه الزاوية تخلت عن الدور التعليمي الذي تأسست من أجله بفترة قصيرة بعد وفاة شيخها، واقتصر دورها على الجانب الاجتماعي. هذا ما جعل الجانب الفكري يتعطل ويعجل باندثارها، خاصة بعد تأسيس زاوية أبي يحي المنياري. وفي فترة المغيلي اكتفت هذه الزاوية بالدور الاجتماعي وهو إيواء المسافرين وتقديم الطعام للزوار.

[55]- محمد الطيب بن عبد الرحيم، القول البسيط، ص ص: 29 – 36.

[56]- يدعي مارتان أن توات قبل دخول المغيلي كانت في فوضى ويسيطر عليها الجهل وتفتقر إلى أدنى شروط النظام. وهذا غير صحيح لأن المغيلي أكمل تعليمه بتوات. ينظر: *A.G.P.MARTIN, à la frontière du MAROC, les oasis sahariennes, édition de l'imprimerie algérienne, Alger : 1908, P. 128.*

[57]- *M. ABITBOL, TOMBOUCTOU, et les arma, Maisonneuve et Larose, Paris :1979, P. 48.*
[58]- تكثر بالخزائن التواتية أعدادا كثيرة من نسخ صحيح مسلم والبخاري وفتح الباري لابن حجر والمدونة في الفقه ومختصر الشيخ خليل. ينظر: ابن يدير وغيره، النوازل التواتية، و30 و.
[59]- محمد بن عبد الكريم التمنطيطي، التقييد، و3 و.
[60]- عبد القادر زبايدية، الحضارة العربية والتأثير الأوربي في إفريقيا الغربية، ص ص: 77 – 78.
[61]-التمنطيطي (محمد بن عبدالكريم)، تقييد حول تاريخ تمنطيط وتوات، مخطوط يوجد بالخزانة البكرية بتمنطيط، دون رقم، و7 ظ.
[62] - ولد بابا حيدة، القول البسيط، ص: 31.

المراجع:

- أعفيف (محمد)، «المسالك الصحراوية توات حلقة اتصال بين المغرب وإفريقيا الغربية»، ندوة العلاقات بين المغرب وإفريقيا الغربية، منشورات عكاظ الرباط، ط 1992م.
- ولد بابا حيدة (محمد الطيب بن عبد الرحيم)، القول البسيط في أخبار تمنطيط، تحقيق فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية والمؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط 1977.
- ابن بطوطة (محمد)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة بيروت، ط الرابعة 1985.
- الوزان (الحسن)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي بيروت والشركة المغربية للناشرين المتحدين الرباط، ط الثانية 1983.
- زبايدية (عبد القادر)، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء دراسات ونصوص، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط 1989.
- زبايدية (عبد القادر)، (الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي جهوده وشهرته خارج الجزائر)، أعمال مهرجان أدرار، 1985م.
- حاجيات (عبد الحميد)، «الحركة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان»، مجلة الأصالة، مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية الجزائر، جويلية – أوت 1975م، عدد 26.
- حجي (محمد)، ألف سنة من الوفيات، تحقيق لشرف الطالب لأبن قنفذ ووفيات الونشريسي ولقط الفرائد لابن القاضي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر الرباط، ط 1976.
- حجي (محمد)، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، مطبعة فضالة الرباط، ط 1978.
- ابن يدير (يحي) وغيره من علماء توات وتلمسان، النوازل التواتية، مخطوط يوجد بالخزانة البكرية بتمنطيط، دون رقم.
- سعد الله (أبو القاسم)، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط الثانية 1990م.
- بن عبد الله (عبد العزيز)، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية معلمة الصحراء، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الرباط، ط 1976، ملحق 2.
- العلوي (عبد العزيز)، «العلاقات التجارية والثقافية بين المغرب المريني وإمبراطورية مالي»، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، عدد 5، السنة 1989.
- فرج محمود (فرج)، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية والمؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط 1977.
- التمنطيطي (محمد بن عبدالكريم)، تقييد حول تاريخ تمنطيط وتوات، يوجد بالخزانة البكرية بتمنطيط، دون رقم.
- التنبكتي (أحمد بابا)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، وضعت هوامشه بإشراف عبد الحميد الهرامة، منشورات كلية الدعوة طرابلس ليبيا، ط الأولى 1986.
- ابن خلدون (عبد الرحمان)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى 1992.

-M. ABITBOL, TOMBOUCTOU, et les arma, Maisonneuve et larose, Paris 1979

A. G. P. Martin , Quatre siècles d'histoire Marocaine , imprimerie Elmaarif aljadida. Rabat (1994).

-A.G.P.MARTIN, a la frontière du MAROC, les oasis sahariennes, édition de l'imprimerie algériennes, Alger 1908.

-A. Selka, notice sur le Touat, bulletin de la société géographique d'Alger et de l'Afrique du Nord, 3e trimestre (1922)..